المجتمع ، ويزوره بعضٌ من أقاربه ؛ ومعهم المأكولات ؛ والمطلوبات .

ولكن هناك سجن دينى أسسه رسول الله ﷺ ؛ حين عزل المجتمع الإيمانى عن السجين ، وقد أمر رسول الله ﷺ ألاّ يُكلّم أحد الثلاثة[1] الذين تخلفوا عن الخروج معه للقتال بحجج واهية ؛ بل وتسامى هذا العزل إلى أن صار عَزْلاً عن الأهل ، إلى أن أمر ﷺ بإنهاء هذا العزل بعد أن تحقق الغرض منه .

وماذا عن حال يوسف فى السجن ؟

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ[2] قَالَ أَحَدُهُمَآ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَعْصِرُ خَمْرًا[3] وَقَالَ ٱلْءَاخَرُ إِنِّىٓ أَرَىٰنِىٓ أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِۦٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ[4] ﴿٣٦﴾ ﴾

(١) هؤلاء الثلاثة هم : كعب بن مالك ، ومرارة بن الربيعة العامرى ، وهلال بن أمية الواقفى ، أخرج مسلم فى صحيحه (٢٧٦٩) حديث كعب وفيه قصتهم كاملة فى التخلف عن الغزو مع رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك .

(٢) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥١١/٤) : « قال « فتيان » لأنهما كانا عبدين ، والعبد يُسمى فتى ، صغيراً كان أو كبيراً ، ذكره الماوردى . وقال القشيرى : ولعل الفتى كان اسماً للعبد فى عرفهم ، ولهذا قال : ﴿ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴿٣٠﴾ ﴾ [يوسف] » .

(٣) الخمر : الشراب المسكر الذى يغطى العقل ويذهب به ، وهى إما مأخوذة من خمرْتُ الشىء ، سترته لأنها تستر العقل ، أو من خمرت العجين : وضعت فيه الخمير فتفاعل معه فاختمر ، والخمر فى صنعها يوضع الخمير على العصير ويُترك حتى يخمر فتؤخذ منه الخمر ، قال تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ ..﴿٢١٩﴾ ﴾ [البقرة] وقوله تعالى : ﴿ إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا ..﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف] أى : أعصر عنباً ليصير خمراً فهو مجاز مرسل علاقته ما سيئول إليه . [القاموس القويم ٢٠٩/١] بتصرف .

(٤) قال القرطبى فى تفسيره (٣٥١٢/٤) : « إحسانه ما كان يعود المرضى ويداويهم ، ويُعزّى الحزانى . قال الضحاك : كان إذا مرض الرجل من أهل السجن قام به ، وإذا ضاق وسّع عليه ، وإذا احتاج جمع له ، وسأل له » .

المعية التى دخل فيها اثنان من الفتية معه السجن هى معية ذات ، وقيلَ : إنهما الخبَّاز والساقى ، وقيل : إن سبب دخولهما هو رغبة بطَانة عزيز مصر فى التشويش على ما حدث من فضيحة كبرى ؛ هى فضيحة مراودة امرأة العزيز ليوسف ؛ ورفض يوسف لذلك .

وكان التشويش هو إذاعة خبر مؤامرة على العزيز ؛ وأن الساقى والخباز قد تم ضبطهما بمحاولة وضع السُّمِّ للعزيز(١) .

وبعد فترة من حياة الاثنين مع يوسف داخل السجن ، وبعد معايشة يومية له تكشَّف لهما سلوك يوسف كواحد من المحسنين .

وحدث أن رأى كل منهما حُلْماً ، فقررا أن يطلبا منه تأويل هذين الحُلْمين ، والسجين غالباً ما يكون كثير الوساوس ، غير آمن على غَده ؛ ولذلك اتجها إليه فى الأمر الذى يُهمهم :

﴿قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦)﴾[يوسف]

ومن سياق الكلام نعرف أننا أمام حُلْمين ؛ فواحد منهما رأى فى منامه أنه يعصر خمراً ، ورأى الثانى أنه يحمل خُبْزاً فوق رأسه تأكل منه الطير ، واتجه كلاهما - أو كُلٌّ منهما على حدَة - يطلبان - تأويل الرؤييين المناميتَيْنِ ، أو أنهما قد طلبا نبأ تَأوِيل هذا الأمر الذى رأياه .

(١) مما ذُكر فى هذا ما قيل من أن الملك غضب على خبَّازه وصاحب شرابه ، وذلك أن الملك عُمِّر فيهم فملّوه فدسُّوا إلى خبازه وصاحب شرابه أن يسُمّاه جميعاً ، فأجاب الخباز وأبى صاحب الشراب ، فانطلق صاحب الشراب فأخبر الملك بذلك ، فأمر الملك بحبسهما ، فاستأنسا بيوسف . [تفسير القرطبى ٤/٣٥١١] باختصار .

وحيثية لجوئهما إليه هو قولهما :

﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٣٦) ﴾ [يوسف]

وهذا يدل على أن الإحسان أمر معلوم لكل البشر ، حتى أصحاب النفوس المنحرفة ، فلا أحد يمكن أن يحكم على آخر أنه محسن إلا إذا وافق عملُه مقاييسَ الإحسان فى ذهن مَنْ يصدر هذا الحكم .

فكل نفس تعرف السوء ، وكل نفس تعرف الإحسان ، ولكن الناس ينظرون إلى الإحسان وإلى السوء بذاتية أنفسهم ، ولكنهم لو نظروا إلى مجموع حركة المتحركين فى الكون ، ونظروا إلى أىِّ أمر يتعلق بالغير كما يتعلق بهم ؛ لَعرفوا أن الإحسان قَدْر مشترك بين الجميع .

ونجد اللص ـ على سبيل المثال ـ لا يسيئه أن يسرق أحداً ، لكن يسيئه لو أن أحداً قام بسرقته ، وهكذا نرى الإحسان وقد انتفض فى أعماقه حين يتوجه السوء إليه ، ويعرف حينئذ مقام الإحسان ، ولكنه حين يمارس السرقة ؛ ويكون السوء متوجهاً منه إلى الغير ؛ فهو يغفل عن مقام الإحسان .

إذن : إنْ أردتَ أن تعرف مقام الإحسان فى مقاييس الفضائل والأخلاق ؛ فافهم الأمر بالنسبة لك إيجاباً وسلْباً .

والمثال الذى أضربه دائماً هو : قبل أن تَمُدَّ عينيك إلى محارم غيرك ، وتعتبر أن هذا ليس سوءً ، هنا عليك أن تعرف مقياسه من الحُسْن إنْ نقلتَ الأمر إلى الصورة العكسية ؛ حين تتجه عيون الغير إلى محارمك .

هنا ستجد الميزان ـ ميزانك للأمور ـ وقد اعتدل . وإذا أردتَ اعتدال الميزان فى كل فعل ؛ فانظر إلى الفعل يقع منك على غيرك ؛ وانظر إلى الفعل يقع من الغير عليك ؛ وانظر إلى الراجح فى نفسك من الأمرين ستجد قب الميزان منضبطاً .

وأقول دائماً : إن الحق سبحانه حين حرَّم عليك أن تسرق غيرك ، لم يُضيِّق حريتك ؛ بل ضيَّق حرية الملايين كى لا يسرقوك ، وهذا مكسب لك .

إذن : فالذى يعرف مقام الإحسان ؛ لا ينسب الفعل الصادر منه على الغير ؛ والفعل الصادر من الغير عليه ؛ بل ينظر إليهما معاً ؛ فما استقبحه من الغير عليه ؛ فليستقبحه منه على الغير .

وقد حكم السجينان على يوسف أنه من المحسنين ، وعلِم يوسف عليه السلام من حكمهما عليه أن مقاييس الإحسان موجودة عندهما ؛ ولذلك نظر إلى الأمر الذى جاءاه من أجله ، واستغل هذه المسألة ؛ لا لقضاء حاجتهما منه ؛ ولكن لقضاء حاجته منهما .

فقد رأى فيهما شبهة الإيمان بالإحسان ؛ والإيمان بالمحسنين ، فلماذا لا ينتهز الفرصة فيأخذ حاجته منهما ؛ قبل أن يعطيهما حاجتهما منه ؟

وكأنه قال لهما : ماذا رأيتُما من إحسانى ؟ هل رأيتم حُسْن معاملتى لكم ؟ أم أن كلاً منكما قد رأى دقة اختيارى للحَسَن من القول ؟ وأنتما قد لا تعرفان أن عندى ـ بفضل الله ـ ما هو أكثر ، وهو ما يقوله الحق سبحانه بعد ذلك فى الآية التالية :

﴿ قَالَ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ(١) قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالْآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾

وبذلك أوضح لهما أنهما لا يريان منه إلا الظاهر من السلوك ، ولكن هناك أمور مَخْفية ، وكأنه يُنمي فيهما شعورهما بمنزلته وبإحسانه وبقدرته على أن يخبرهما بأوصاف ونوع أيِّ طعام يُرزَقانه قبل أن يأتي هذا الطعام[٢] .

وهذه ليست خصوصية في يوسف أو من عنْدياته ، ولكنها من علم تلقَّاه عن الله ، وهو أمر يُعلِّمه الله لعباده المحسنين ؛ فيكشف الله لهم بعضاً من الأسرار .

وهما ـ السجينان ـ يستطيعان أن يكونا مثله إنْ أحسنا الإيمان بالله.

ولذلك يتابع الحق سبحانه :

﴿ ذَلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي تَرَكْتُ مِلَّةَ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَهُم بِالآخِرَةِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٧) ﴾ [يوسف]

---

(١) الملة : الدين ، حقاً كان أو باطلاً ، فمن الحق قوله تعالى : ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ .. (١٣٠) ﴾ [البقرة] ، وهي الدين الحق . ومن الباطل قوله : ﴿ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ .. (٢٠) ﴾ [الكهف] ، وهي ملة باطلة . [القاموس القويم ٢/٢٣٦] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٤/٣٥١٢) : قوله : ﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ .. (٣٧) ﴾ [يوسف] يعني : لا يجيئكما غداً طعام من منزلكما : ﴿ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ.. (٣٧) ﴾ [يوسف] لتعلما أني أعلم تأويل رؤياكم . وكان هذا من علم الغيب خُصَّ به يوسف ، وبيّن أن الله خصَّه بهذا العلم ؛ لأنه ترك ملة قوم لا يؤمنون بالله . يعني : دين الملك » .

وكأنه بذلك يهديهما إلى الطريق الذى يجعلهما من المحسنين الذين يعطيهم الله بعضاً من هبَات الخير ، فيعلمون أشياء تَخْفى على غيرهم .

وهذا يدلُّنا على أن المؤمن إذا رأى فى إنسان ما مَخيلَة[1] خير فَلْينمى هذه المخيلة فيه ليصل إلى خير أكبر ؛ وبذلك لا يحتجز الخصوصية لنفسه حتى لا يقطع الأسوة الحسنة ؛ ولكى يُطمِع العباد فى تجليات الله عليهم وإشراقاته .

ولذلك أوضح يوسف عليه السلام للسجينين أنه ترك ملَّة قوم لا يؤمنون بالله بما يليق الإيمان به سبحانه ، ولا يؤمنون بالبعث والحساب ثواباً بالجنة ، أو عقاباً فى النار .

ويتابع الحق سبحانه ما جاء على لسان يوسف عليه السلام :

﴿وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَآءِيَ إِبْرَاهِيمَ[2] وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَآ أَن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ذَلِكَ مِن فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ٣٨﴾

---

(١) إنه لمخيل للخير أى : خليق له ، وأخال فيه خالاً من الخير وتخيَّل عليه تخيُّلاً ، كلاهما : اختاره وتفرَّس فيه الخير . وتخولت فيه خالاً من الخير وأخلت فيه خالاً من الخير أى : رأيت مخيلته . وتخيل الشيء له : تشبَّه . وتخيَّل له أنه كذا أى تشبَّه وتخايل ، يقال : تخيلته فتخيَّل لى ، كما تقول تصورته فتصور . وتبينته فتبين ، وتحققته فتحقق . [لسان العرب - مادة : خيل] .

(٢) عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « إن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ابن الكريم ، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليهم السلام » أخرجه الترمذى فى سننه (٣١١٦) ، وأحمد فى مسنده (٢/ ٣٣٢ ، ٤١٦) ، والحاكم فى مستدركه (٢/ ٣٤٦) .

وبذلك أوضح يوسف عليه السلام أنه ترك ملَّة القوم الذين لا يعبدون الله حَقَّ عبادته ، ولا يؤمنون بالآخرة ، واتبع ملة آبائه إبراهيم ثم إسحق ثم يعقوب ، وهم مَنْ أرسلهم الله لهداية الخلق إلى التوحيد ، وإلى الإيمان بالآخرة ثواباً بالجنة وعذاباً بالنار .

وذلك من فضل الله بإنزاله المنهج الهادى ، وفضله سبحانه قد شمل آباء يوسف بشرف التبليغ عنه سبحانه ؛ ولذلك ما كان لِمَنْ يعرف ذلك أنْ يشرك بالله . فالشرك بالله يعنى اللجوء إلى آلهة متعددة .

يقول الحق سبحانه :

﴿ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَـٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ (٩١) ﴾ [المؤمنون]

فلو أن هناك آلهةً غير الله سبحانه لصنع كلُّ إله شيئاً لا يقدر على صُنْعه الإله الآخر ؛ ولأصبح الأمر صراعاً بين آلهة متنافرة .

ومن فضل الله ـ هكذا أوضح يوسف عليه السلام ـ أن أنزل منهجه على الأنبياء ؛ ومنهم آباؤه إبراهيم وإسحق ويعقوب ؛ ليبلُغوا منهجه إلى خَلْقه ، وهم لم يحبسوا هذا الفضل القادم من الله ، بل أبلغوه للناس .

﴿ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

وساعة تقرأ أو تسمع كلمة : ﴿ لَا يَشْكُرُونَ (٣٨) ﴾ [يوسف]

اعلم أن الأمر الذى أنت بصدده هو فى مقاييس العقل والفطرة

السليمة يستحق الشكر ، ولا شُكْر إلا على النعمة .

ولو فَطِنَ الناس لَشكروا الأنبياء والرسل على المنهج الذى بلَّغوه عن الله ؛ لأنه يهديهم إلى حُسْن إدارة الدنيا ، وفوق ذلك يهديهم إلى الجنة .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما واصله يوسف من حديثه للسجينين :

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٌ(١) مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ(٢) ٣٩﴾

وكلمة « صاحب » معناها ملازم(٣) ؛ والجامع بين يوسف والسجينين هو السجن ، ونحن نقول « فلان صاحب الدراسة » أو « صاحب حج » ، الشيء الذى يربط بين اثنين أو أكثر ، إما أن تنسبه للمكان ، أو تنسبه إلى الظرف الذى جمع بين تلك المجموعة من الصحبة .

---

(١) الرب : هو الله عز وجل ، وهو رب كل شىء أى مالكه ، وله الربوبية على جميع الخلق ، لا شريك له ، وهو ربُّ الأرباب . ورب كل شىء : مالكه ومستحقه . والرب يطلق فى اللغة على المالك والسيد والمدبِّر والمربِّى والصاحب والقيِّم والمنعم . [لسان العرب ـ مادة : ربب] بتصرف .

(٢) قهره يقهره قهراً : غلبه وأذلَّه . قال تعالى : ﴿فَأَمَّا ٱلۡيَتِيمَ فَلَا تَقۡهَرۡ ٩﴾ [الضحى] ، والقاهر : اسم فاعل ، قال تعالى : ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ ١٨﴾ [الأنعام] أى : المسيطر عليهم . [القاموس القويم ٢/١٣٦] بتصرف .

(٣) الصاحب : يُقال لمن كثُرت ملازمته . صحبه يصحبه وصاحبه : عاشره . والصاحب : المعاشر . [لسان العرب ـ مادة : صحب] .

وطرح يوسف السؤال :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٣٩) ﴾ [يوسف]

وحين تطرح سؤالاً عبر مقابل لك ، فأنت تعلم مُقدَّماً أنه يفهم أن أرباباً متفرقون ليسوا خيراً من إله واحد ، وكأن يوسف قد وَثِق من أن إجابتهما لن تكون إلا بقولهم « بل عبادة إله واحد خير » .

وهو لم يكُنْ ليسأل إلاَّ إذا عرف أنهما سيُديرانِ كل الأجوبة ؛ فلا يجدان جواباً إلا الجواب الذى أراده .

فهما قد عبدا آلهة متعددة ؛ وكان المفروض فى مقاييس الأشياء أن تُغنيكم تلك الآلهة عن اللجوء لمن يعبد الإله الواحد .

إذن : فى قُوَى البشر نجد التعدد يُثْرِى ويُضخِّم العمل ، لكن فى الألوهية نجد الشرك يُضعِف العمل .

ولذلك نجد الصوفى يقول : اعمل لوجه واحد يكفيك كل الأوجه .

ولذلك قال يوسف عليه السلام لصاحبى السجن :

﴿ أَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ .. (٣٩) ﴾ [يوسف]

ولو كان تفرُّقهم تفرُّقَ ذوات لكانوا بلا كمال يستحقون من أجله العبادة ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق تكرار لما كان لهذا التكرار لزوم ، ولو كان تفرُّقهم تفرُّق اختصاصات ، فهذا يعنى أن لكل منهم نقطةَ قوة ونقاطَ ضعف ؛ وتفرُّقهم هذا دليلُ نقص .

ولذلك رحمنا الحق نحن المؤمنين به لنعبد إلهاً واحداً ، فقال :

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ[1] وَرَجُلاً سَلَمًا[2] لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٢٩)﴾ [الزمر]

وقد حاول يوسف عليه السلام أن يهديهم إلى عبادة الإله الواحد ، وقال لهم من بعد ذلك ما جاء به الحق سبحانه :

﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ[3] وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٤٠)﴾

ونلحظ أن يوسف ـ عليه السلام ـ لم يتكلم حتى الآن مع السجينين عن مطلوبهما منه ، وهو تأويل الرُّؤيَيَيْن ، وهو لو تكلم فى المطلوب منه أولاً ؛ لانصرف ذِهْن وانتباه كُلٍّ من السجينين إلى قضاء

---

(١) شكس: ساء خلقه وغلب عليه حب النزاع . وتشاكس القوم : تنازعوا واشتد اختلافهم . قال تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ ..(٢٩)﴾ [الزمر] ذلك مثل العبد المشرك له آلهة متعددة يتنازعون فيه. [القاموس القويم ١/٣٥٤] .

(٢) السَّلْم والسَّلَم : الأمان وعدم الحرب : ﴿ ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً (٢٠٨)﴾ [البقرة] فى الصلح والمهادنة والاستسلام : ﴿وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ ..(٩٠)﴾[النساء] سالموكم وخضعوا لكم واستسلموا لكم . وقوله تعالى: ﴿وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ .. (٢٩)﴾ [الزمر] أى : ملكاً خاصاً له لا ينازعه فيه أحد. [القاموس القويم ١/٣٢٤] .

(٣) القيِّم: الثابت المستقيم الذى لا عوج فيه ، أو المقوِّم المعدِّل للأمور أو المهيمن المشرف عليها . ومن ذلك قوله : ﴿دِينًا قِيَمًا.. (١٦١)﴾ [الأنعام] أى : مستقيماً أو مقوِّماً لغيره من الأديان السابقة . [القاموس القويم ٢/١٤٣] .

حاجتهما منه ؛ ولن يلتفتا بعد ذلك إلى ما يدعو إليه ؛ ولأن الذى يدعو إليه هو الأمر الأبْقى ، وهو الأمر العام الذى يتعلق بكل حركة من حركات الحياة .

وبذلك كان يوسف عليه السلام يؤثر السجينين ؛ فقد أراد أن يلفتهما إلى الأمر الجوهرى قبل أن يتحدث عن الجزئية الصغيرة التى يسألانِ فيها ؛ وأراد أن يُصحِّح نظرة الاثنين إلى المنهج العام الذى يدير به الإنسان كل تفاصيل الحياة وجزئياتها ؛ وفى هذا إيثار لا أثرة[١] .

وهنا قال الحق سبحانه على لسان يوسف عليه السلام :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن ما تعبدونه من آلهة مُتعدِّدة هو مُجرَّد عبادة لأسماء بلا معنى ولا وجود ؛ أسماء ورثتموها عن آبائكم أو أنشأتموها أنتم ، فكفرتُمْ بإنشاء أسماء لآلهة غير موجودة ، كما كفر آباؤكم كُفْر نسيان التكليف أو إنكار التكليف .

وتُوضع الأسماء عادةً للدلالة على المُسمَّى ؛ فإذا نطقنا الاسم تجىء صورة المسمى إلى الذِّهْن ؛ ولذلك نسمى المولود بعد ولادته باسم يُميِّزه عن بقية إخوته ؛ بحيث إذا أُطلق الاسم انصرف إلى الذات المشخصة .

(١) آثره عليه : فضَّله . وآثرت فلانا على نفسى : من الإيثار . ويقال : قد أخذه بلا أثرة وبلا إثرة وبلا استئثار ، أى : لم يستأثر على غيره ولم يأخذ الأجود . [لسان العرب - مادة : أثر] .

وإذا أُطلق اسم واحد على متعددين ؛ فلا بد أن يوضح واضع الاسم ما يميز كل ذات عن الأخرى .

والمَثَل من الريف المصرى ؛ حين يتفاءل أب باسم « محمد » ؛ فيسمِّى كل أولاده بهذا الاسم ، ولكنه يُميِّز بينهم بأن يقول : « محمد الكبير » و « محمد الأوسط » و « محمد الصغير » .

أما إذا وُضِع اسم لمُسمًّى غير موجود ؛ فهذا أمر غير مقبول أو معقول ، وهم قد وضعوا أسماء لآلهة غير موجودة ؛ فصارت هناك أسماء على غير مُسمًّى .

ويأتى هؤلاء يوم القيامة ؛ ليُسألوا لحظة الحساب :

﴿ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ تُشْرِكُونَ (٧٣) مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَل لَّمْ نَكُن نَّدْعُو مِن قَبْلُ شَيْئًا كَذَٰلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ (٧٤) ﴾ [غافر]

وهكذا يعترف هؤلاء بأنه لم تَكُنْ هناك آلهة ؛ بل كان هنا أسماء بلا مُسمَّيات .

ولذلك يقول الحق سبحانه هنا :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلَّا أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

وكأن يوسف يتساءل : ءإذا كانت لكم حاجة تطلبونها من السماء ، هل ستسألون الاسم الذى لا مُسمًّى له ؟

وهل يسعفكم الاسم بدون مُسمًّى ؟

ويوسف عليه السلام يعلم أن المعبود لا يمكن أن يكون اسماً بلا

مُسمًّى ، وهو يعلم أن المعبود الحق له اسم يبلغه لرسله ، ويُنزل معهم المنهج الذى يوجز فى « افعل » و « لا تفعل » .

وهم قد سموا أسماء لا مُسمًّى لها ، ولا يستطيع غير الموجود أن يُنزِل منهجاً ، أو يُجيب مضطراً .

ولذلك يتابع القرآن ما جاء على لسان يوسف عليه السلام فى وَصْف تلك الأسماء التى بلا مُسمَّيات ، فيقول :

﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ إِلاَّ أَسْمَاءً سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : ما أنزل الله بها من حجة .

وتتابع الآية الكريمة ما جاء على لسان يوسف :

﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ .. (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : إننى - والكلام ليوسف - إن قلتُ شيئاً فلأنِّى ناقلٌ للحكم عن الله ، لا عن ذاتى ؛ ولا من عندى ؛ ولا عن هواى ؛ لأنه هو سبحانه الذى أمر ألا تعبدوا إلا إياه ، أى : لا تطيعوا أمراً أو نهياً إلا ما أنزله الله فى منهجه الهادى للحق والخير .

ويُذيِّل الحق سبحانه الآية الكريمة :

﴿ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (٤٠) ﴾ [يوسف]

أى : أن هذا هو الدين المستقيم دون سواه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، بمعنى : أن الرسل قد بلَّغتهم بالمنهج ،

ولـكنهم لم يُوظِّفوا هذا العلم فى أعمالهم .

ثم بدأ يوسف عليه السلام فى تأويل المطلوب لهما .

يقول الحق سبحانه :

﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسۡقِي رَبَّهُۥ خَمۡرٗاۖ وَأَمَّا ٱلۡأٓخَرُ فَيُصۡلَبُ فَتَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِن رَّأۡسِهِۦۚ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسۡتَفۡتِيَانِ[1] ﴿٤١﴾﴾

وهكذا رجع يوسف عليـه السلام إلـى مطلب السجينين ، وفسَّـر رؤيا مَنْ يسقى الخمر بأنه سيخرج من السجن ويعود ليسقى سيده ، وأما الآخر فلسوف يُصلَبُ وتأكـل الطير من رأسه ، لأن رمزية الرؤيا تقـول : إن الطير سـيـأكل من رأسه ؛ وهذا يـعنى أن رأسه سـتكون طعاماً للطير .

وتأويل الـرؤيا علم يـقــذفــه الله فى قلـوب مَنْ علَّمــهــم تأويل الأحاديث ، وهى قـدرة على فكِّ شَفْرة الحُلْم ، ويعطيهـا الله لمَنْ يشاء من عباده .

وقد قال يوسف لمَنْ قال :

﴿ إِنِّى أَرَانِى أَعْصِرُ خَمْرًا .. ﴿٣٦﴾ ﴾ [يوسف]

أنه سوف ينال العـفو حَسْب مـا أظهرته الرؤيا التى قالهـا ، وأما

---

(١) استفتاه : طلب منه الفتوى وسأله رأيه فى مسألة فأفتاه ، فأجابه . قال تعالى : ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَلِرَبِّكَ الْبَنَاتُ وَلَهُمُ الْبَنُونَ ﴿١٤٩﴾﴾ [الصافات] . وقال : ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ ﴿١٢٧﴾﴾ [النساء] .

الآخر فسيأكل من رأسه الطير . أى : سيُصلب كما أوحتْ بذلك رموز الرُّؤيا .

ونلحظ أن يوسف عليه السلام قد انشغل بالحكم الذى أوضحته الرؤييان عن الاثنين صاحبى الرؤييين .

وهذا دليل على أن القاضى يجب أن يكون ذهنه مُنصبّاً على الحكم ؛ لا على المحكوم عليه ، فقد سمع يوسف منهما ؛ وهو لا يعرف مَنْ سينال البراءة ، ومَنْ الذى سوف يُعاقب .

فنزع يوسف ذاته من الأمر ، ولم يسمح لنفسه بدخول الهوى إلى قلبه ؛ لأن الهوى يُلوِّن الحكم ، ولا أحد بقادر على أن يسيطر على عاطفته ، ولا بد للقاضى لحظة أن يصدر حكماً أن يتجرد تماماً من الهوى والذاتيات .

ويُعلِّمنا الحق سبحانه ذلك حين أنزل لنا فى قرآنه قصة سيدنا داود عليه السلام :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا[1] الْمِحْرَابَ (٢١) إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ[2] وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ (٢٢) إِنَّ هَٰذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا[3] وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ (٢٣) قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي

(١) تسور السور : تسلقه وعلاه . قال تعالى : ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ (٢١) ﴾[ص] [القاموس القويم ١/٣٣٥]

(٢) الشطط : الجور وتجاوز الحد فى كل شىء . قال تعالى : ﴿ لَّقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا (١٤) ﴾ [الكهف] أى : قولاً جائراً مجاوزاً للحد . [القاموس القويم ١/٣٤٩] .

(٣) اكفلنيها : أى اجعلنى كافلاً لها راعياً شئونها مالكاً لها . عزنى فى الخطاب : غلبنى وقهرنى . [القاموس القويم ٢/١٨، ١٦٧] .

بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ[1] رَاكِعًا وَأَنَابَ (٢٤) ﴾ [ص]

وكان من ذكر عدد نعَاج أخيه أنه إنما أراد أن يستميل داود عليه السلام لصفِّه ؛ وكان يريد أن يُصوِّر الظلم الذى وقع عليه ، وحكم داود بأن مَنْ أخذ النعجة ليضمها لنعاجه هو الذى ظلم ؛ وشعر داود أنه لم يُوفَّق فى الحكم ؛ لأنه ذكر فى حيثية الحكم نعاج الذى أراد أن يأخذ نعجة أخيه .

فالأخذ وحده كان هو المبرر عند داود لإدانة الذى أراد الاستيلاء على ما ليس من حقه ؛ ولذلك اعتبر أن هذا الأمر كله فتنة لم يُوفَّق فيها ، واستغفر الله بالركوع والتوبة .

وقد كان يوسف عليه السلام حكيماً حين قال تأويل الرُّؤيا متجرداً من الذاتية ، وأنهى التأويل بالقول :

﴿ قُضِيَ الأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ (٤١) ﴾ [يوسف]

أى : أنه لا مجال للرجوع أو العدول عن حدوث ذلك الذى وصل إليه من تأويل ؛ فقد جاء التأويل وفقاً لما علَّمه الله له .

وهناك الكثير من الروايات عما تحمَّله يوسف من صعاب قبل الجُبِّ وقبل السجن ، وقيل : إن عمته ابنة إسحق ، وهى أكبر أولاده ؛ قد استقبلته بعد أن ماتت أمه لترعاه فتعلقت به ؛ ولم تحب أحداً قَدْر محبتها له .

---

(١) خر راكعاً : أسرع إلى الركوع والخضوع لله كأنه سقط من علو . [القاموس القويم ١/١٩٠].

وتاقت نفس يعقوب إلى ولده ؛ فذهب إليها وقال لها : سلِّمي إليَّ يوسف . لكنها قالت : والله ما أقدر أن يغيب عني ساعة ، ولن أتركه .

فلما خرج يعقوب عليه السلام من عندها ، عمدتْ إلى شيء[١] من ميراث إبراهيم عليه السلام يتوارثه أكبر الأبناء ، ووضعته تحت ملابس يوسف .

وكان العُرفُ الجارى أنه إذا سرق أحدٌ شيئاً وتَمَّ ضبطه ؛ تحول من حرّ إلى عبد ، وحين كاد يعقوب أن يخرج مع ابنه يوسف عائداً إلى بيته ؛ أعلنت العمة فقدان الشيء الذى أعطاه لها والدها إسحق ؛ وفتشوا يوسف فوجدوا الشيء المفقود .

فقالت عمته : والله إنه لَسَلْم ـ أى عبد ـ وكان العرف أن مَنْ يسرق شيئاً يتحول إلى عبد عند صاحب الشيء .

وهكذا بقى يوسف مع عمته محروماً من أبيه لفترة ، ولم يستطع الأب استرداده إلا بعد أن ماتت العمَّة .

ثم جاءت حادثة الجُبِّ ، ومن بعدها محاولة امرأة العزيز لغُوايته ، ورغم تيقُّن العزيز من براءته إلا أنه أُودِع السجن ؛ ويقول الرُّواة :

« إن يوسف عليه السلام قد عُرِف فى السجن بالجود ، والأمانة ، وصدق الحديث ، وحُسْن السمت[٢] ، وكثرة العبادة ، ومعرفة التعبير ـ أى تأويل الرُّؤيا ـ والإحسان إلى أهل السجن .

---

(١) هذا الشيء هو مِنْطَقَة إسحاق فيما ذكره ابن كثير فى تفسيره [٢/٤٨٦] والمنطقة : هى كل ما شد به الإنسان على وسطه . وقد انتطق : أى شد النطاق على وسطه . [لسان العرب ـ مادة : نطق] .

(٢) السمت : حسن القصد والمذهب فى أمور الدين والدنيا . قال خالد بن جَنْبَة : السمت اتباع الحق والهدى وحسن الجوار وقلة الأذيَّة . [لسان العرب ـ مادة : سمت] .

ولما دخل هذان الفَتيانِ معه السجن ؛ تآلفا به وأحبَّاه حُبّاً شديداً وقالا له : والله لقد أحببناك حباً زائداً . قال : بارك الله فيكما ؛ إنه ما من أحد أحبَّنى إلا دخل علىَّ من محبته ضررٌ ، أحبتنى عمَّتى فدخل الضرر بسببها ، وأحبَّنى أبى فأوذيتُ بسببه ، وأحبَّتنى امرأة العزيز فكذلك .

أى : أنه دخل السجن وصار معهما دون ذنب جَنَاه .

قال السجينان : إنا لا نستطيع غير ذلك »[1] .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك ما قاله يوسف لمن ظَنَّ أنه سينجو من السجن :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ[2] فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ ﴾

والمقصود هنا هو السجين الذى رأى حُلْماً يعصر فيه العنب ، فهو الذى فسر له يوسف رؤياه بأنه سينجو ؛ ويواصل مهمته فى صناعة الخمر لسيده .

---

(١) قال القرطبى فى تفسيره [٣٥١١/٤] أن صاحب السجن أحب يوسف ، فوسع عليه فيه ، ثم قال : يا يوسف لقد أحببتك حباً لم أحب شيئاً حبك . فقال : أعوذ بالله من حبك . قال : ولم ذلك ؟ فقال : أحبنى أبى ففعل بى إخوتى ما فعلوه ، وأحبتنى سيدتى فنزل بى ما ترى» .

(٢) الرب : يُطلق على المالك وعلى السيد وعلى الصاحب وعلى راعى الأسرة ورئيسها . [القاموس القويم ٢٥١/١] بتصرف

وقوله سبحانه :

﴿ وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف]

يعنى أن الأمر بالنجاة لم يتيقن بعد ، ولم يصبح علماً .

وقد أوصاه يوسف عليه السلام :

﴿ اذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ .. ﴿٤٢﴾ ﴾ [يوسف]

والذكر هو حضور شىء بالبال ؛ وكان لـه بالبال صلة استقبال ، مثل أى قضية عرفتَها من قبل ثم تركتَها ، ونسيتَها لفترة ، ثم تذكرتَها من جديد .

وهكذا نعلم أن للإنسان استقبالات للإدراكات ، وهى لا تظل فى بُؤْرة الشعور كل الوقت ؛ لأن الذهن لا يستطيع أن يكون مشغولاً إلا بشىء واحد ، فإن جاء شىء آخر فهو يزحزح الأمر الأول إلى حافة الشعور ، ليستقر الأمر الجديد فى بؤرة الشعور .

والمثل الذى أضربه دائماً هو إلقاء حجر فى الماء ، فيصنع الحجر دوائر تكبر ويتتابع اتساع أقطارها ، وهكذا بؤرة الشعور ، حين تستقبل أمراً أو خاطراً جديداً .

فالخاطر الجديد يُبعد كل الخواطر الأخرى من المركز إلى الحاشية ، ثم يأتى ما يُذكِّرك بما فى حاشية الشعور ؛ ليعود لك الخاطر أو الأمر الذى كنت قد نسيتَه وتتذكره بكل تفاصيله ؛ لأن ذاكرة الإنسان تعمل على مُسْتويين ؛ فهى تحفظ المعلومات ؛ وتسترجع المعلومات أيضاً .

وقد قال يوسف لمن ظن أنه نَاجٍ :

﴿ اذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ .. (٤٢) ﴾ [يوسف]

أي : اذكر ما وجدته عندي من خير أمام سيدك .

وقال بعض المفسرين : إن يوسف عليه السلام حين نطق هذا القول ؛ شاء له الله أن يمكث في السجن بضع سنين ؛ فما كان ينبغي له كرسول أن يُوسِّط الغير في مسألة ذِكْره بالخير عند سيد ذلك السجين .

فيوسف كرسول إنما يتلقى عن الله بواسطة الوحي ؛ وهو قد قال لذلك السجين وزميله :

﴿ لا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ إِلاَّ نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ذَٰلِكُمَا مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي ..(٣٧) ﴾ [يوسف]

وهذا يعني أنه يستقبل عن الله مباشرة ، وكان عليه أن يظل موصولاً بالمصدر الذي يفيض عليه .

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ فَأَنسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ (٤٢) ﴾ [يوسف]

ونسيان ذكر الله فيه نوع من العقوبة ، أو يحمل شيئاً من التأديب ليوسف ، وهكذا نرى أن الشيطان نفسه إنما يُعين الحق على مُرَاداته من خَلْقه .

وهذا ما يشرح لنا بقاء يوسف فى السجن بضع سنين ؛ ونعرف أن البِضْع من السنين يعنى من ثلاث سنوات إلى عَشْر سنوات ، وبعض العلماء حَدَّده بسبع سنين .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّىٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ(1) وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ ۖ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ(2) أَفْتُونِى فِى رُءْيَٰىَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾

والأرض التى وقعتْ عليها ، وجَرَتْ فوقها تلك القصة هى مصر ، وسبق أن عرفنا ذلك حين قال الحق سبحانه :

﴿ وَقَالَ الَّذِى اشْتَرَاهُ مِن مِّصْرَ .. ﴿٢١﴾ ﴾ [يوسف]

وهكذا نعرف أن هناك « ملك » ، وهناك « عزيز » .

ونحن نعلم أن حكام مصر القديمة كانوا يُسمَّوْنَ الفراعنة ، وبعد أن اكتُشِفَ « حجر رشيد » ، وتم فَكُّ ألغاز اللغة الهيروغليفية ؛ عرفنا

---

(1) عجف: هزل فهو أعجف وهى عجفاء . وقوله تعالى : ﴿ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ .. ﴿٤٣﴾ ﴾ [يوسف] هى الهَزْلى التى لا لحم عليها ولا شحم ضُرِبت مثلاً لسبع سنين لا قطر فيها ولا خصْب [لسان العرب ـ مادة : عجف] .

(2) المقصود بالملأ هنا هم أهل العلم والبصر بالكهانة والنجامة والعرافة والسحر وأشراف قومه. [راجع : تفسير القرطبى ٤/٣٥٢٠] .

أن حكم الفراعنة قد اختفى لفترة ؛ حين استعمر مصرَ ملوكُ الرُّعاة ، وهم الذين يُسمَّوْنَ الهكسوس .

وكانت هذه هى الفترة التى ظهر فيها يوسف ، وعمل يوسف وأخوه معهم ، فلما استرجع الفراعنة حكم مصر طردوا الهكسوس ، وقتلوا مَنْ كانوا يُوالونهم .

وحديث القرآن عن وجود مَلِك فى مصر أثناء قصة يوسف عليه السلام هو من إعجاز التنبؤ فى القرآن .

وساعة تقرأ :

﴿وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ..(٤٣)﴾ [يوسف]

ثم يطلب تأويل رؤياه ؛ فهذا يعنى أنها رُؤيا منامية .

وكلمة : ﴿سِمَانٍ (٤٣)﴾ [يوسف]

أى : مُمْتلئة اللحم والعافية . وكلمة (عجاف) أى : الهزيلة ؛ كما يُقال عند العامة « جلدها على عضمها » ؛ فكيف تأكل العجاف السمان ؛ مع أن العكس قد يكون مقبولاً ؟

وأضاف الملك :

﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَاتٍ..(٤٣)﴾ [يوسف]

ولم يَصِف الملك أىَّ فعل يصدر عن السنابل ، ثم سأل مَنْ حوله من أعيان القوم الذين يتصدرون صُدور المجالس ، ويملأون العيون :

﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤْيَايَ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ (٤٣) ﴾ [يوسف]

وكلمة (تعبرون) مأخوذة من « عبر النهر » أي : انتقل من شاطئ إلى شاطئ ، وكأنه يطلب منهم المراد المَطْوى فى الرُّؤيا .

ومن هذا المعنى أخذنا كلمة « العِبْرة » ، وهى التجربة التى نستفيد منها ، ومنه أيضاً « العبارة » وهو أن يكون هناك شيء مكتوم فى النفس ، ونُؤدِّيه ، ونُظهره بالعبارة .

ومنه « العَبْرة » ، وهو الدَّمْعة التى تسقط من العين تعبيراً عن مشاعر ما ؛ سواء كانت مشاعر حُزْن أو فرح ، والمادة كلها تدور حول تعريف مجهول بمعلوم .

وهكذا يفعل مُفسِّر الرُّؤيا حين يَعبُر - من خلال رموزها - من الخيال إلى الحقيقة .

ولم يعرف الملأ الذين حول المَلِك تفسيراً للرُّؤيا التى رآها فى منامه .

ويقول الحق سبحانه ما جاء على ألسنتهم :

﴿ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ(١) أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ (٤٤) ﴾

وهكذا أعلن الملأ أن رؤيا الملك ليست سوى أخلاط أحلام بلا معنى .

---

(١) الضغث : قبضة من قضبان مختلفة من النبات . وقوله تعالى : ﴿ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ .. (٤٤) ﴾ [يوسف] أى : أحلام مختلفة مختلطة ملتبسة غير مميَّزة على سبيل الاستعارة ، كالأشياء المختلطة . [القاموس القويم ١/٣٩٤] .

و « الضِّغْث » هو حزْمـة من الحشائش مخـتلفة الأجناس ؛ فكأن رُؤْيا الملك لا تأويلَ لهـا عندهم ؛ لأنهم ليـسوا مـن أهل التمـييـز فى التأويل .

وهذا صـدْق من البطانة فى ألاَّ يخبـر أحدهم بشـىء ، إلا إذا كان على علم به ؛ ولا يضير أحدهم أن يعلن جهله بأمر ما لا يعلمه .

والذى يعلن جهله بأمـر لسائله - ويكون قد علمه - يجـعله يسأل غيره ، أما إن أجاب بجواب ؛ فربما جعله يَثْبُتُ على هذا الجواب .

ولذلك قال العلمـاء ليفسحوا مـجال الصِّدْق فى الفُتْـيا : « مَنْ قال لا أدرى فقـد أفتى » ؛ لأنه حـين يقول « لا أدرى » ؛ سيـضطرك إلى أن تسأل غيره .

ويقول الحق سبحانه بعد ذلك :

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِى نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ[1] بَعْدَ أُمَّةٍ[2] أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾ ﴾

وكـان الذى نجا من الـسجـينين يسـمع مقـالة الملك وردّ المـلأ ؛ فاسترجع بذاكرته ما مَرَّ عليه فى السجن ، وكيف رأى الرُّؤيا ، وكيف قام يوسف بتأويلها .

---

(١) ادكـر : أصلها اذتكر على وزن افـتـعل ، قلبت تاء الافـتـعـال دالاً وذال الفعل دالاً وأدغـمت الدالان : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ [القمر] [القاموس القويم ١/ ٢٤٤] .

(٢) الأمة : المدة والحين والوقت . وفُسِّر به قوله تعالى : ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. ﴿٤٥﴾ ﴾ [يوسف] . وقرأ ابن عباس « وادكر بعد أَمَه » بالهاء . والأَمـهُ : النسيان والغفلة أى تذكر بعد نسيان . [القاموس القويم ١/ ٣٤].

وقوله : ﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ .. (٤٥) ﴾ [يوسف]

يعنى : أنه أجهد عقله وذهْنه ؛ وافتعل التذكُّر لأن فترة لا بأس بها من الزمن قد مرَّتْ ، وكلمة « أمة » تعنى فترة من الزمن ؛ كما فى قول الحق تبارك وتعالى :

﴿ وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ أَلا يَوْمَ يَأْتِيهِمْ لَيْسَ مَصْرُوفًا عَنْهُمْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ (٨) ﴾ [هود]

و « الأمة » قد يُراد بها الجماعة من الناس ، ويُراد بها أيضاً الرجل الجامع لكل صفات الخير ، كما قال الحق سبحانه فى وصف إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا[1] لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠) ﴾ [النحل]

أى : أن كل خصال الخير مجموعة فى إبراهيم عليه وعلى نبينا السلام ، وبعد أن افتعل ساقى الملك واجتهد ليتذكر ما حدث له منذ فترة هى بضع سنين ؛ أيام أنْ كان سجيناً ورأى رُؤيا منامية أوَّلَها له يوسف ، قال الساقى للملأ وللملك عن تلك الرؤيا :

﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

وبذلك استأذن ليذهب إلى مَنْ يُؤوِّل له رُؤيا الملك .

وقوله : ﴿ فَأَرْسِلُونِ (٤٥) ﴾ [يوسف]

---

(١) القنوت : الطاعة والدعاء . وقنت المؤمن بالله : أطاعه وأقرَّ له بالعبودية . وقنت فى صلاته : خشع واطمأن . وقنت : دعا وأطال الدعاء . [القاموس القويم ٢/١٣٤].